أبو العلاء المعرى

التفاؤل والأمرية عند الشيخ

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

— ٤ —

الأمل :

لى أمـــل ، فرقانه محكم أقرأه غضـــاً كما أنزلا (١)

أجرى من الخيل آمال أصرفها لها بحثّى تقريب وإخباب (٢)

لا تقنطن أيها الإنسان ، فإن بلغتك(٣) عند الله الكريم ، والرزق يطلبك وأنت تبصر الأحلام . لو أن للرزق لساناً هتف بمن رقد ، أو يدا لجذب المضطجع باليد ، أو قدماً لوطىء على الجسد ، لا يزال الرزق مرتقا على الهامة ترنيق الطير الظماء(٤) على الماء المطمع(٥) .

(١) فى حديث : الأمل رحمة لأمتي ، لولا الأمل ما أرضعت أم ولداً ، ولا غرس غارس شجرا . ومن أقوالهم : أعظم المصائب انقطاع الرجاء ، قتل القنوط صاحبه . وللحجاج : أمس أجل ، واليوم عمل ، وغدا أمل .

(٢) التقريب والخبب : ضربان من سير الفرس فى الأصل .

(٣) البلغة : ما يتبلغ به من العيش ولا فضل فيه ، وتبلغ بكذا اكتفى به .

(٤) رنق الطائر خفق بجناحيه في الهواء ورفرف ولم يطر . =

وعتبة الحياة ، ولم يزل متردداً بين العتبتين من الصفحة الأولى الى الصفحة الأخيرة .

فى هذه الصفحة الأخيرة يقول عن راهب الفكر : « أما هو فقد رجع إلى عاداته السابقة ... يفض رسائل قرائه فى الصباح باسم الثغر هادىء الأعصاب . وإذا هو بعد زمن قليل قد وقعت فى يده رسالة بين البريد ارتجف لها : إنها من امرأة تسأله أن يحدد موعداً للقائها لأنها تريد أن تحادثه فى شأن من شئون الأدب والفكر ! . فصاح فى نفسه : لا . لا . كفى ... ألم يعرفهن ؟ .. وضغطت أصابعه على الرسالة يريد أن يمزقها ... »

هكذا كتب الأستاذ توفيق فى الأسطر الأخيرة من الصفحة الأخيرة عدا سطرين اثنين .

ولو ختم الرواية بعد ماتقدم لأحجم الأدباء عن سؤاله وعلمن أن التمزيق العاجل نصيب تلك الرسائل التى يكتبنها اليه ...

وهو يريد ولا يريد .

وهو يتردد بين الصومعة والحياة

ولهذا اتكل على الله وختم الرواية معتصما بالشجاعة فقال ان « الشجاعة ليست فى تجنب مزالق الجسد وتحاشى مواطن الزلل . بل فى مواجهتها بمصباح الحقائق ونور المثل العليا »

ومصباح الحقائق إذن هو الكفيل بانتظام البريد فى مجراه ، وليكتب اذن من يكتب فان راهب الفكر شجاع !

عباس محمود العقاد

١١ ٥ ٢٤

سم الضلال إذا عاينته قمرا إن الاهلة عن وشاك لأقمار

وقد يخص الدينار فى حنفوانه ويذبه من بعد النهى فيسود

أحسنت الخير لست تشعر ؟ بلى . إن للخير ثمرة لذت فى المطعم ، وتصوعت لمن تسم ، وحسنت فى المنظر والتوسم ، وجاوزت الحد فى العظم ، فما ظنك بثمرة هذه صفتها ؟ !

هوِّن عليك :

الأمر أيسر مما أنت مضمره فاطرح أذاك وهون كل ماصمما

إذا تفكرت فكراً لا يمازجه فساد عقل صحيح هانَ ما صمما

العلم كالقفل ، إن ألفيته عسرا فحاوله ثم عاوده لينفتحا

دع ما ضر وصعب ، إلى ما نفع وهان . واترك المضلة إلى الرشدة فإن طرقات الخير كثير .

لا طيرة :

الأيام كلها لله ، وربما ساءتك عروبة(١) ، وسرك الخميس . وإذا نزل بك نازل فى يوم فلا تمقته لذاته .

بركات الله ورحمته :

يبعث الله فى نهار وليل بركات من رزقه مدروره(٢)

= فى الأساس : هو ظمآن وهي ظمأي وهم ومن ظماء .

(٥) المطمع الذي أطمعها في النزول عليه (أبو العلاء) .

(١) الجمعة ، فى اللغة : هو اسم قديم لها وكأنه ليس بعربي ، يقال : يوم عروبة والعروبة ، والأفصح ألا يدخلها الألف واللام .

(٢) « مدرورة » كثيرة ، فى الأساس : ومن المجاز : درت الدنيا على أهلها إذا كثر خيرها .

غشت رحمة الله كل الحيوان ، وتكفل بالرزق لكل المتغذيات .

فرح المرء بالكلأ[١] ، وحق لهم أن يبتهجوا برزق الله الكريم . جاء اللبأ[٢] ، وذهب الوبأ[٣] ، فسبحان الله العظيم ! يا رخص ، ثب لمتراق الكثب[٤] على الكثيب[٥] وعلى الله رزق العالمين .

السماء تدق[٦] ، والبلاد تورق ، والله الموفق ، والرزق بكرمه متدفق .

والشمس تغمر أهل الأرض مصلحة
ربت جسوماً ، وفيها للعيون سنا

طبعت لك الشمس ما يفنى أخادعة
عن أن يكون له فى الأرض طاهونا

الإقدام ، الجادة :

وإنى رأيت الصعب يركب دائماً
من الناس من لم يركب الغرض الصعبا

والعيش جسر ، نال من هو جاسر
أو كاد فيه وخاب من لم يجسر

ويحمد الصابر الموفق على غرض لا عاجز يعرى التقصير معقود

ينبغى للمسبوق ألا يؤثر بصبوح ولا غبوق[٧] ، فليستحى انتأخر أن يفتخر .

الخيف من رأى السخيف ، فاجر على مسطرتك فى تقوى الله ؛ والخيل بفوارسها متمطرات[٨] .

إنما نحن فى أحلام نائم لا أحلام ذوى العزائم ، وقد يرى الراقد نفسه مع الفراقد ، فإذا استيقظ رآها بالجدد[١] .

وكن فى كل نائبة جريئا
تصب فى الرأى إن خطىء الهدان[٢]

وسائل من تمطس فى التوقى لأية علة مات الجبان[٣]

اشجُع فإن أقدار الله لا تعجل إلى الشجاع .

صُل على الظالم بالمصل[٤] .

الدنيا ، الحياة :

خُلقتُ من الدنيا وعشت كأهلها
أجد كما جدوا ، وألهو كما لهوا

أمور دنياك سطر خطه قدر وحبها فى السجايا أول السطر[٥]

ولا تظهرن الزهد فيها فكلما شهيد بأن القلب يضمر عشقها

نفسى بها ونفوس القوم ملهجة ونحن نخبر أنا لا نبالها[٦]

أمرتنى بسلو عن خوادعها فانظر هل أنت مع السالين سالها

ولا ترى الدهر إلا من يهيم بها طبعاً ، ولكنه باللفظ قالها

فترومن هذى الحياة[٧] لكى تموت النفس ريا

الموت ، كرهه :

والنفس آلفة الحياة فدمعها يجرى لذكر فراقها منهلُّه !

ولم أرد المنية باختيارى
ولكن أوشاك الفتيان سعيى[٧]

ولو خيرت لم أترك محلى فأسكن فى مضيق بعد رحب !

فليت الفتى كالبدر جدد عمره يعود هلالا كلما فنى الشهر !

(١) الكلأ : العشب أكلاء .
(٢) اللبأ : اللبن ، أوله .
(٣) بالقصر والمد .
(٤) الكثبة : الطائفة من طعام أو غيره ، القليل من اللبن .
(٥) الكثيب : التل من الرمل .
(٦) تدق : تمطر . وفى الأساس : ودقت السماء والمطر ودق ، التاج : الودق : المطر كله شديده وهينه .
(٧) الصبوح كل ما أكل وشرب غدوة وهو خلاف الغبوق : شرب العشى (اللسان) .
(٨) « الخيف : جمع خيفة ، (المطرة) العادة (متمطرات) جمع متمطرة وهى المجتهدة فى العدو » والتفسير للشيخ .

(١) « الجدد » : الأرض .
(٢) « الهدان » الضعيف الجبان الذى لا يهتدى لأموره . « شرح السقط » والهدان الأحمق الثقيل .
(٣) تمطس فى كل شىء إذا أدق فيه النظر « الأساس » .
(٤) « المصل » — بضم الميم والصاد ، وضم الميم وفتح الصاد — السيف . فى « التاج » : قال ابن سيده : لا نعرف فى الكلام اسماً على مفعل ومفعل إلا هذا وقولهم منخل ومنخل .
(٥) فى الصباح : وفتح الطاء فى لغة بنى عجل فيجمع على أسطار ، ويسكن فى لغة الجمهور فيجمع على أسطر وسطور .
(٦) ملهجة : مولعة .
(٧) أفنيان : الليل والنهار .

أحسن بدنيا القوم لو أن الفتى لا يُقتضى ، وأديمه لا يحلم[١] !
تضاعف همى أن أتتنى منيتى
ولم تقض حاجى بالمطايا الرواقص[٢] !
فواها لأشباح لكم غير أنها تبدل من أوطانها برموس !
أنبأنا اللبيب بلقيا الردى فالغوث من صحة ذاك النبأ !!!

موت البطولة :

هناك ضرب من الموت لا يكره ولا يذم بل يحب ويعظم ، وهو موت البطولة فى الوغى . وقد حرض الشيخ عليه ، والحرب شرعة العربى :

إذا المـــرء لم يغش الكريهة أوشكت
حبال الهوينى بالفتى أن تقطعا[٣]

والجهاد من دين المسلم :

« كُتِبَ عليكم القتال وهو كرهٌ لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شرٌّ لكم ، والله يعلم ، وأنتم لا تعلمون » .

« وجاهدوا فى الله حقَّ جهاده » .

« وجاهدوا فى سبيله لعلكم تفلحون » .

« انفروا خفافا وثقالا[٤] ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » .

وإذا كان الحال كما قال الشيخ .

وما سلَّ المهند للتوقى كسل المشرفية للتشفى

فالموت يومئذ خير من ألف حياة ، خير من الخلود .

من السعد فى دنياك أن يهلك الفتى
بهيجاء يغشى أهلُها الطعن والضربا
فإن قبيحا بالمؤيد ضجعة على فرشه يشكو إلى النفر الكربا

كلٌّ يحاذر حتفا وليس يعدم شربه
ويتقى الصارم العضب ، أن يباشر غربه

والنزع فوق فراش أشد من ألف ضربه
لقد ركزوا الأرماح غير حميدة فبعدا لخيل فى الوغى لم تطارد !
وما يجمع الأشتات إلا مهذب من القوم يحمى باردا فوق بارد[١]
لضربة فارس فى يوم حرب تطير الروح منك مع الفراش[٢]
أخفُّ عليك من سقم طويل وموت بعد ذاك على الفراش
ألا تهفو للحرب وتدعو للوغى شومك[٣] ؟
وقد علمتْ وغيرى عن مشاهدة
أن العلا إلفُ قوم فى الوغى لبس[٤]
وجدتك أعطيت الشجاعة حقها
غداة لقيت الموت غير هيوب
من السعادة أن تموت القوم كراما

للحديد العلا على سائر الجوهر[٥] ذلُّ العدى وعزُّ الضيوف
فوارسُ خيلكم تُعطى مناها إذا دمّى نواجذها الشكيم[٦]
وفى بيض السيوف بياض عيش
بذلك — فاعلموا — نطق الحكيم

القوة :

يخضع الظبى الأخضع[٦] ، وينتصر الليث المهتصر .

المال ، تحبره :

والمال خِدنُ النفس غيرَ مدافع والفقر موت جاء بالإهمال
أو ما ترى حكم النجوم مصوراً بيت الحياة يليه بيت المال
ما اليسر كالعُدم فى الأحكام بل شحطت
حال المياسير عن حال المحاويج

---

(١) يقتضى : يطالب كأن الحياة دين عنده فاذا جاء الأجل اقتضاه المقتضى .

(٢) رقص البعير يرقص رقصاً — بحرك القاف — إذا أسرع فى سيره . ولا يقال يرقص إلا للاعب والابل وما سوى ذلك فانه يقال : يقفز وينقز . «اللسان» .

(٣) الكلمة العربى فى مفضلية .

(٤) خفافا من السلاح وثقالا منه أو ركبانا ومشاة أو شبابا وشيوخا أو صحاحا ومراضا «الكشاف» القصد بالآية الحث على النفر على كل حال تعسب أو تسهل «مفردات الراغب» .

(١) «البارد» السيف ، البوارد السيوف التواتل «اللسان» . يحمى السيف فوق الدرع أو السيف فوق السيف .

(٢) فراش الرأس : عظام رقاق تلى القحف . والقحف العظم الذى فوق الدماغ .

(٣) الأشوس : الجرىء على القتال الشديد «اللسان» .

(٤) رجل أليس من رجال ليس وهو الذى لا يبالى هولا ، ولا يروعه شىء «الأساس» .

(٥) الشكيمة فى اللجام الحديدة المعترضة فى فم الفرس التى فيها القاس ، وفأس اللجام الحديدة القائمة فى الحنك .

(٦) الأخضع الذى فى عنقه خضوع خلقة «أبو العلاء» . رجل أخضع : راض بالذل «الأساس»

انفقْ لترزق فالثراء الظفر ، إنْ يُترك يَشن ويعود حين يُقلم

ينبغي لمن يرث ، أن يَحترث ، وإلا فني التراث

هل من سخره لقضاء الحاج

أعتمدُ على ذي وجهين ، ما عُرف قط بالمَين . لو كان رجلاً لكان ناصح الجيب ... سبّح ربه منذ خُلق ، إذا انطلق به فهو منطلق ، ومتى بُعث في المآرب قضاها ، والله بلطفه أمضاها . ثم يُحبس ولا ذنب له . سجن فهو صول الدهر مستريح ، لا تلح عليه الشمس ولا الريح . لا يأكل ولا يشرب ... له منزل مادخله الهم ... إذا غاب الحافظ عنه فله الحتم ، وليس ذلك من القضاء الحتم ... خُص بالعمر الطويل ، وتناسخه جيل بعد جيل ، فظهر في الأكاليل ، والأسورة والخلاخيل ، والكأس الدائرة بشراب الكرم والنخيل . ما شاب ولا هرم ، ولا درَم[1] للكبر ولا درِم[2] . ملكه قوم فدفنوه ، فتطاولت في الأرض سنوه ، ثم ظهر ما نُسي اسمه ، ولا تغير جسمه ... به صفرة من غير الضرب ، ظهر بها في الشرق والغرب ... تلقاه معلماً بالتوحيد ، وليس بالعالم ولا البليد ، ولكن الله أنطق بعظمته كل جماد ... جلّ من سخره لقضاء الحاج[3] .

العمل

تروم رزقاً بان سموّك متكلا وأدين الناس من يسعى ويحترف

لا تقومنّ في المساجد ترجو بها الزلف
معملاً بسط راحتيك إلى نائل يُلف
وُرمِ الرزق في البلاد فإن رمتَه ازدلف

يعرى الفقير والدينار كسوته وفي صوانك ما إعداده خرف

أملكُ من شداد بن عاد ساعة تفتقر الأملاك رجل اشترى كرّا[1] ، وقصد منابت الشجر محتطباً ، فرجع بالعَضد[2] متكسباً ، فأحل في المكسب وأطاب

لا يصبرنّ فقير تحت فاقته
إن البارت جانبها البارت[3]

من في اللجة يغبط السائر على المحجة ، والمسافر يغبط المقيم ، والغنيمةُ مع الظاعنين

العمل — وإن قلّ — يستكثر إذا اتصل ودام

من سهر في الليالي السود فأحر به أن يسود

بُلغ أمل بعمل ، وأهلُ التقصير بلا عون ولا نصير

أجدْ عملك وجِدّ فيه

طِدْ بناءك على أس

الثمر ، النبات

فإذا ملكت الأرض فاحم ترابها من غرسه شجراً بغير ثمار

إذا رملة لم تجيء بالنبات فقد جهلت إن سقتها السوانى[4]

(١) الكر : الحمل ج كرور.

(٢) العضد : ما عضد من الشجر ، وعضده قطعه بالمعضد وهو كل ما عضد به الشجر « اللسان » .

(٣) البارت : الفلوات . جانبها : قطعها . البارت : المساكين والمحتاجون ، جمع سبروت وسبرت . وفي « نقائض جرير والأخطل » لأبي تمام : صعلك الرجل وسبرت إذا افتقر ، وفي « التاج » سبرت الرجل قنع وتمكن .

(٤) السانية : الساقية ، عنى بالسوانى السحب .

(١) درم من الدرمان وهو تقارب الخطو.

(٢) درم من الدرم وهو سقوط الأسنان ، ومن ذلك قيل : كعب أدرم ، والمعنى أن نقشه لم يزل وخشونته لم تملس «أبو العلاء» .

(٣) ورد هذا الوصف البارع «في الفصول والغايات» ص ٢٨٨، ٢٨٩ ومن قول الشيخ في هذا الكتاب ص ٧٧ : « في الحق من الذهب ثلاث خلال : حسنه ، ونقاؤه ، وبقاؤه على الأبد بغير تغيير» وكتاب «الفصول والغايات» من أعظم مؤلفات الشيخ وقد أفضل على العربية بنشر الجزء الأول منه العلامة الأستاذ محمود حسن زناتي محققاً مشروحاً وكان العلامة الأستاذ الكبير صاحب الرسالة هو الذي هدى الأستاذ زناتي إلى هذا الكنز .

وزارة الدفاع الوطني

تقبل العطاءات لغاية الساعة ١٢ ظهر يوم خمسة مارس سنة ١٩٤٥ عن توريد زجاج نصف دبل وانجليزي لمصلحة الأشغال العسكرية — والشروط بإدارة المشتريات والعقود بالوزارة وثمن النسخة منها ٢٥٠ مليما . ٣١٨٥